الهجرة الهلالية و إشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي

د. علاوة عمارة
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة الأمير عبد القادر ـــ قسنطينة

إن فكـــرة انحطاط الحضارة الإسلامية ليست بالجديدة، فقد تطرق إليها العلامـــة ابـــن خلدون في كتابه العمران و لاحظ ما أصاب العالم الإسلامي بعد تراجع العصبية العربية و وصول القيادات القبلية الممثلة في الأتراك و البربر إلى قيادة الأمة الإسلامية. غير أن الفكر الخلدوني ظل في أكثر الأحيان في طي النسيان و هو مـــا يجعله يقترب من سوسيولوجية الفشل (La sociologie de l'échec)' بالنسبة لعصره. فباستثناء بعض الأسماء القليلة كالمقريزي (ت 845 هـــ/1141)[1] و ابن الأزرق الأندلســـي (ت 1491/896)[2] و المقـــري التلمساني (ت 1040/

[1] للمـــح التأثير الخلدوني في كتابات المقريزي و على الخصوص في رسالة إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، دار الهلال، 1990.

[2] في كـــتابه بدائـــع السلك في طبائع الملك، تح محمد بن عبد الكريم الجزائري، تونس، الدار العربية للكتاب، 1977.

1631)[1] لا نكـــاد نجد تفاعل إيجابي مع الطرح الخلدوني المعالج لمختلف جوانب الحضارة الإسلامية و على الخصوص قضية الاضمحلال و السقوط في إطار الدورة الحضارية.

مســـتغلا ازدهـــاره الاقتصـــادي و تفوقه الفكري, قام الغرب المسيحي بالتطرق إلى أسباب انحطاط العالم الإسلامي من خلال بعض الإشارات التي ترجع إلى الســـنوات الأولى لعصـــر التنوير الفرنسي (Epoque des Lumières). و أول إشـــارة لهـــذا الانحطـــاط نجدها في الرسالة التي بعث بها الطبيب فرانسوا بارنيي (François Bernier) إلى كولبار (Colbert) الذي كان وزيرا للملك لويس الرابع عشـــر (Louis XIV) . في هـــذه الرسالة تحدث هذا الطبيب الذي كان في خدمة الحكـــام الصـــفويين عن أسباب سقوط حضارة الإسلام الآسياوي و أرجعها إلى احتكار الحكام للأراضي الفلاحية مما أدى بالعامة إلى السقوط في الفقر المدقع. هذه الإلـــتفاتة حظيت باعتناء مفكري الغرب الذين عكفوا على دراسة ظاهرة سقوط الحضارات القديمة و على الخصوص الإسلامية منها[2]. ففي رواياته المعنونة بالرسائل الفارســـية (*Lettres persanes*) لمح منتسكيو (Montesquieu, 1755) إلى الأزمة التي كان يعاني منها العالم الإسلامي و أرجعها إلى أسباب تاريخية مرتبطة بالعلاقة بين الحاكم و المحكوم[3]. دائما في فرنسا "اللويس الرابع عشرية" نجد المفكر والمؤرخ فولـــتير (Voltaire) يكتب عن تاريخ العرب و الأتراك و يتطرق إلى انحطاط عالم

---

[1] أنظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب, تح احسان عباس, بيروت, دار صادر, 1988

[2] Cf. Henri-Irénée Marrou, *De la connaissance historique*, Paris, Editions du Seuil, 1954, p. 182-184.

[3] Cf. Montesquieu, *Lettres persanes*, rééd. Paris, Maxi-Poche, 2002.

الإســـلام في كتابه *Essai sur les Mœurs* . بعد ذلك نجد أن الاهتمام بما آل إليه وضع العالم الإسلامي توسع إلى مختلف بقاع العالم الغربي مثل ما نجده في كتابات كـــل مـــن يـــوهان هـــردر (Johann G. Herder, m. 1803) , كريستيو فولني (Christian Volney, m. 1820) و غســـتاف لو بون (Gustave Le Bon) . هذا الأخير كتب دراسة حول حضارة العرب (*La civilisation des Arabes*) و جعل من أحد فصوله محورا حول ما أسماه بأفول حضارة العرب[1] .

في الفترة المعاصرة ازداد عدد الدراسات الغربية حول العالم الإسلامي من خلال الإنتاج التاريخي للمستشرقين خلال القرنين السابقين, و ما تبعه من دراسة شـــاملة لـــتاريخ العالم الإسلامي بمختلف حقبه الزمنية. فكان الإجماع بين مختلف تـــيارات الاستشـــراق[2] الكلاســـيكي و المعاصر أن الفترة الزمنية التي تمثل مرحلة الـــتحولات الكبرى لحضارة الإسلام هي القرن الحادي عشر الميلادي, وهي التي ســـتؤدي إلى انحطاط عام لها في القرون الموالية. ففي كتابه النهضة الإسلامية (*El Renacimiento musulmán*) تطـــرق أنخلـــو قرلي (Angelo Ghirelli) إلى هذا الانحطاط و حدده بالقرن الحادي عشر قبل حديثه عن الحركات الإصلاحية الحديثة

---

[1] Gustave Le Bon, *La civilisation des Arabes*, rééd. Paris, Le Sycomore, 1980, p. 463-495.

[2] مصطلح الإستشراق (orientalisme) استعمل لأول مرة سنة 1799 في المجلة الموسوعية (*Magazine encyclopédique*) و اعترفت به الأكاديمية الفرنسية سنة 1835 . ميلاد هذا الإسم يدل على مدى تطور الإهتمام بالثقافات الشرقية موازاة مع تفاقم الظاهرة الإستعمارية. أنظر

Marcel Boisard, *L'humanisme de l'Islam*, Paris, Unesco, 1985 ; Said Edward. *L'orientalisme* : l'Orient crée par l'Occident, Paris, Seuil, 1980 ; Maxime Rodinson, *La fascination de l'Islam*, Paris, La Découverte, 1989 ; Rabah Saddek. « L'Islam dans l'orientalisme français » dans *al-Mun'ataf*, 14, (1988), p. 1-22.

التي ظهرت في العالم الإسلامي[1]. هذه النظرة أخذت طابع العنصرية و الإسقاطات الحديـــثة في كثير من الكتابات الغربية و هو ما نلاحظه في الكتاب الذي تركه لنا الوزيـــر الأول لســـلطنة مســـقط و عمان، الانجليزي برترام طوماس (Bertram Thomas) حيث كتب:

" العـــرب كانوا شعب ليس لديه ذوق النظام و غير قادر علـــى التسيير و حفظ الاستقرار. التوسعات العجيبة التي حـــدثت في القرنين السابع و الثامن الميلاديين و التي أدت إلى احتلال محيط جغرافي شاسع كمثيله الروماني لوحقت في الحال بفترة اضمحلال سريعة تقريبا مثلها... العرب لم يعـــرفوا أبـــدا السلم، فلأنهم عاشوا بالسيف فانهم ماتوا بواسطته[2]."

فكرة اضمحلال الحضارة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي تبنتها أغلـــب دوائـــر الاستشراق الأنجلوسكسوني و هو ما نلمحه في كتاب العرب في التاريخ (*The Arab in History*) لمؤلفه برنارد لويس (Bernard Lewis) و الذي صدر عام 1954 , حيث كتب فصلا عن ما أسماه بالعرب في طور الاضمحلال و أرجـــع هذه الوضعية إلى تراكم عدة عوامل و هي ضعف نظام الخلافة و تراجع الأنشـــطة الـــتجارية و الفلاحـــية بسبب عدم قدرة النظام الإداري على التسيير

[1] Angelo Ghirelli, *El Renacimiento musulmán*, Bercelona, Montaner y Simón S. A., 1948, p. 24-27.

[2] Bertram Thomas, *Les Arabes*, trad. de l'anglais, Roland Huret, Paris, Payot, 1946.

الاقتصادي و النفقات الكبرى لأنظمة الحكم. ضعف حضارة الإسلام يضيف هذا المـــؤرخ ظهر جليا من خلال سلسلة من الهجمات الخارجية و الداخلية مثلها على الخصوص كل من الإفرنج و عرب بني هلال[1].

عالم الاستشراق الفرنسي و الغربي تبنى هذا الطرح في المؤتمر الشهير الذي عقـــد في مدينـــة بوردو (Bordeaux) الفرنسية من 25 إلى 29 جوان 1956 والذي حمل عنوانا مثيرا: " كلاسيكية و اضمحلال ثقافي في تاريخ الإسلام ". ومن أهم المداخلات التي سجلت في هذا الملتقى نجد على الخصوص إشكالية الملتقى التي قدمها روبار برونشفيك (Robert Brunschvig) ، أحد أكبر المختصين الفرنسيين في الـــتاريخ السياســـي و الديني للمغرب الإسلامي، و التي تركزت حول مفاهيم الاضـــمحلال و الســـقوط[2]. المداخلـــة التي ألقاها المؤرخ الفرنسي كلود كهان (Claude Cahen) تعتـــبر من أهم ما قدم في المؤتمر نظرا لشهرة صاحبها من جهة وتخصصـــه في التاريخ الاقتصادي للإسلام من جهة ثانية. كلود كهان ركز على العـــوامل الاقتصادية و الاجتماعية فيما أسماه بالأفول الثقافي للإسلام, لأن حسب رأيـــه أن المـــناطق الأكثر غنى من الناحية الاقتصادية هي التي تركزت بها المراكز الثقافـــية على غرار فارس و بلاد الرافدين و مصر. ابتداء من القرن الحادي عشر

[1] Bernard Lewis. *The Arab in History*, London, Hutchinson's University Library, 1954, p. 144-164.

[2] Robert Brunschvig, « Problème de la décadence » dans *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'islam, Actes du symposium international d'histoire et de civilisation musulmane*, Bordeaux (25-29 juin 1956), éd. Paris, Maisonneuve et Larose, 1977, p. 29-46.

الميلادي, عرف العالم الإسلامي تحولات عميقة نتج عنها ضعف ثم انهيار في القرن الـــرابع عشر الميلادي. كلود كهان يضيف إلى العوامل الاقتصادية عوامل أخرى مثل التفكك اللغوي و النزاعات السياسية و الصراعات الاجتماعية و هي التي نتج عنها أفول حضارة الإسلام[1].

هذا الطرح الاستشراقي تبناه بعض المؤرخين العرب المتكونين بالجامعات الغـــربية و علـــى الخصوص المسيحيين منهم كفليب حتي الذي أرجع " أفول نجم العروبة في الشرق و الغرب" الذي حدث ابتداء من القرن الرابع الهجري إلى الخراج المرهق و إلى عدم تمازج العرب مع القوميات الأخرى التي دخلت في الإسلام[2].

إشكالية أفول حضارة الإسلام لم تكن حكرا على الدوائر الغربية, فهناك الكـــثير من المفكرين و المصلحين المسلمين ممن تطرق إليها ابتداء من القرن السابع عشر. من بين المحاولات البارزة نجد على الخصوص مجهودات الشيخ محمد بن عبد الـــوهاب (ت 1792) الذي أرجع سبب تخلف المسلمين إلى تخليهم عن عقيدة الســـلف الصالح. بعده تقريبا بقرن جاء المصلح جمال الدين الأفغاني (ت 1897) الذي رأى في الاستعمار الغربي العامل الرئيسي لتخلف العالم الإسلامي و الذي لا ســـبيل للـــنهوض إلا بطرده. بعدهما تعددت الكتابات و الآراء حول سبل نهوض المسلمين لكن في غالب الأحيان بعيدا عن التساؤلات المطروحة في الدوائر الغربية.

---

[1] Claude Cahen, « Les facteurs économiques et sociaux dans l'ankylose culturelle de l'islam » dans *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'islam*, *Ibid*, p. 195-207.

[2] فليب حتي، العرب ـــ تاريخ موجز، بيروت، دار العلم للملايين، 1954، ص 190.

و من بين العديد من الكتابات ننقل ما كتبه أبوالحسن الندوي في كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين":

" قال أحد الأدباء: أمران لا يحدد لهما وقت بدقة، النوم في حياة الفرد، و الانحطاط في حياة الأمة، فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا و استويا. انه لحق في قضية أكثر الأمم، و لكن بدأ التدلي و الانحطاط في حياة الأمة الإسلامية أوضح منه في حـــياة الأمـــم الأخـــرى، ولو أن نضع إصبعنا على الحد الفاصـــل بـــين الكمال و الزوال لوضعنا على ذلك الخط التاريخي الذي يفصل بين الخلافة الراشدة و الملوكية العربية أو ملوكية المسلمين[1]."

هذا النص حتى و إن استخرج من كتاب غير أكاديمي فانه معبر عن نوعية الطـــرح العـــربي الإســـلامي حول مسألة الانحطاط. فكتاب الندوي المنتشر بقوة بالخصوص في الأوساط الدينية من خلال أزيد من خمسة عشر طبعة عربية يصور لنا النظرة المسلمة لأسباب انحطاط العالم الإسلامي و التي ترجعها إلى أسباب سياسية متعلقة بانتقال الخلافة من شورية راشدة إلى ملك وراثي[2].

[1] أبـــو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، القاهرة، دار القلم للنشر و التوزيع، 2000 ، ط 15 ، ص 129 .

[2] المرجع نفسه، ص 129-139 .

بطبـــيعة الحـــال، اجتناب الحديث عن تحقيب زمني (La périodisation) لظاهـــرة اجتماعـــية أو إعطاء تصور عام لبلورتها لا تحظى بإجماع المؤرخين نظرا لاختلاف تصورهم لمفهوم التاريخ و الغاية من دراسته. فمثلا في العالم العربي نجد علـــى ســـبيل المثال طريف الخالدي يرفض فكرة الحكم على فترات ما من تاريخ الفكـــر بالازدهـــار و علـــى أخرى بالانحطاط نظرا لارتباطها بالفترات السابقة واللاحقة و بمختلف التحولات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية[1]. هذه النظرة رغم سلامتها قامت بسلب التاريخ من إحدى مقارباته و حاولت حصر المؤرخ في هدفه الذي سطرته أغلب الفلسفات التاريخية و هو الفهم دون الحكم. لكن هذا لم يمـــنع كمـــا رأينا بعض المؤرخين من إصدار أحكام و تحديد القرن الحادي عشر الميلادي كفترة التحولات العميقة التي حدثت في العالم الإسلامي و التي أدت إلى انحطـــاط الحضـــارة الإســـلامية باســـتعمال عدة مصطلحات للتعبير عن ذلك (ankylose, déclin, décadence). أمـــا فيما يخص بلاد المغرب الوسيط، قامت المدرسة الاستشراقية الفرنسية منها على الخصوص بتحميل القبائل الهلالية مسؤولية تخريب النسيج العمراني و الاجتماعي.

الإستشواق الفرنسي و تاريخ المغرب الوسيط

قـــراءة الكـــتابات الفرنسية حول تاريخ المغرب تسمح لنا برسم الخيوط الرئيسية للنظرة الاستعمارية لتفسير مختلف الحقب التاريخية لتاريخ بلاد المغرب:

[1] طريف الخالدي، بحث في مفهوم التاريخ و منهجه، بيروت، دار الطليعة، 1982، ص 80ـــ81.

قامت الحضارة القرطاجية بتخصيب الأرضية الليبية البربرية، و قام الوجود الروماني بإدماج بلاد المغرب في فلك الحضارة الغربية قبل أن تفل و تظلم مع الفتح العربي و تربط بالدورة التاريخية الشرقية. الاحتلال العربي الذي تم على مرحلتين (الفتح العربي في القرن السابع و الهجرة الهلالية في القرن الحادي عشر) قام بطرد البربر السكان الأصليين الذين لا يمكنهم استرجاع أراضيهم إلا مع الوجود الفرنسي و بالتالي العودة إلى فلك الحضارة الغربية المتنورة.

الكـــتابات التاريخية ركزت على الهجرة الهلالية و دورها في تخريب بلاد المغـــرب، كما صورت لنا ذلك البربري المستقر في مواجهة الرحل العرب، و أول من قام بنشر هذه الأفكار العنصرية نجد على الخصوص أرنست مرسيي (Ernest Mercier) في كـــتابه الأول الصادر عام 1875 " تاريخ استقرار العرب بإفريقيا الســـاحلية مـــن خلال وثائق المؤلفين العرب و على الخصوص تاريخ البربر لابن خلـــدون"[1]، أمـــا فيما يخص الكتاب الثاني فقد طبع سنة 1888 بعنوان " تاريخ

[1] Ernest Mercier, *Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs arabes et notamment par l'Histoire des Berbères d'Ibn Khaldoun*, Constantine, L. Marle Librairie édition, 1875, 406 p.

إفريقيا الساحلية من الأزمنة البعيدة إلى الفتح الفرنسي[1]. هذه النظرة المعادية للعرب تجلت في جل الدراسات الفرنسية حول تاريخ المغرب الوسيط التي كتبت في بداية القـــرن العشرين. ففي كتابه " قلعة بني حماد، عاصمة بربرية لإفريقيا الشمالية في القرن الحادي عشر" تطرق الجنرال دوبايلي (Le Général de Beylié) إلى الهجرة الهلالية و حملها مسؤولية أفول حضارة القلعة الحمادية[2].

بعـــد كـــتابات الجيل الأول من المستشرقين الاستعماريين حول ماضي المغرب ظهرت مجموعة أخرى وسعت من مجالات البحث التاريخي و مصادره من خلال استغلال المصادر النثرية و الوصفية و الفقهية و هو ما ساهم في محاولة إعطاء صـــورة عامـــة عـــن تاريخ المغرب الوسيط و توظيفه في قالب إيديولوجي موال للاســـتعمار، و لهـــذا ظهرت مجموعة من الدراسات التي تحمل العرب مسؤولية الـــتخلف الذي تعيشه "بلاد البربر" (La Berbérie) و الداعية إلى إعادة النظر في " الحقـــوق المســـلوبة" للبربـــر بسبب " الهمجية المشرقية". فقد قام جورج مارسي (Georges Marçais) المنتمـــي لأكـــبر عائلة فرنسية مهتمة بكتابة تاريخ المغرب والأستاذ السابق بمدرسة قسنطينة، بتحضير رسالة دكتوراه حول " العرب في بلاد البربـــر من القرن الحادي عشر إلى الرابع عشر"[3] و هي الدراسة التي حاولت رسم

---

[1] Ernest Mercier, *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830)*, Paris, Ernest Leroux, 1888, vol. II, 477 p.

[2] Le général de Beylié, *La Kalaa des Beni-Hammad. une capitale berbère de l'Afrique du Nord au XI^e siècle*, Paris, Ernest Leroux, 1909, p. 9.

[3] هذه الأطروحة نشرت في سنة 1913. أنظر:

Georges Marçais, *Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e siècle*, Constantine, Paris, Ernest Leroux, 1913, 2 vol. 769 p.

خريطة للقبائل الهلالية التي استقرت ببلاد المغرب ابتداء من منتصف القرن الحادي عشـــر. بالـــرغم من الطابع الوصفي لهذه الدراسة فان جورج مارسي ما لبث أن أصدر أحكاما قاسية عن القبائل الهلالية و اتهم إياها بتخريب حضارة المغرب، وهي الأحكـــام التي أعلنها صراحة في العديد من كتاباته و على الخصوص " بلاد البربر الإســـلامي و الشرق في العصر الوسيط ". في هذا الكتاب الأخير رتب مارسي ما أسماه نتائج الحملة الهلالية وهي إشاعة الفوضى بإفريقية، و تعريب المنطقة، وإدخال الـــبداوة إلـــيها، و اغتصـــاب أراضي بربر زناتة و هذا ما أدى ببلاد المغرب من الدخول في طور جديد تميز بالانحطاط[1].

مـــع امـــيل فلـــيكس غوتيي (Emile Félix Gautier) ظهرت نوع من الكـــتابات العنصـــرية من خلال اتهام العرب بتحطيم حضارة المغرب الموروثة عن الـــرومان و البيـــزنطيين و تشبيه الحركة الهلالية بهمجية الشعوب المتبربرة المحطمة لحضارة روما. ففي كتابه " أسلمة افريقيا الشمالية، القرون المظلمة للمغرب" كرر عـــدد من أقوال ابن خلدون حول " همجية العرب" ووظفها في قالب إيديولوجي استعماري و من هذه المقولات المكررة[2]:

" إن العـــرب إذا تغلـــبوا على أوطان أسرع إليها الخراب
والســـبب في ذلـــك أنهـــم أمة وحشية باستحكام عوائد
الـــتوحش و أسبابه فيهم فصار لهم خلقا و جبلة و كان

[1] Georges Marçais, *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, 1927, rééd. Casablanca, Editions Afrique Orient, 1991, p. 193-228.
[2] Emile Félix Gautier, *L'islamisation de l'Afrique du Nord : les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, Payot, 1927, p. 389.

عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم و عدم الانقياد للسياسة و هذه الطبيعة منافية للعمران و مناقضة له فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة و التغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران و مناف له فالحجر مثلا إنمـــا حاجـــتهم إليه لنصبه أثافي للقدر فينقلونه من المباني ويخـــربونها عليه و يعدونه لذلك...و افريقية و المغرب لما جـــاز إليها بنو هلال و بنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرســـوا هـــا لثلاثمائة و خمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان و البحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم و تماثيل البناء و شواهد القرى و المداشر[1]."

ربـــط الهجرة الهلالية بأكبر الحركات المحطمة لحضارات العالم تبنته الكثير من الدراسات كما نلمحه في كتاب " الشعوب المتبربرة من الغزوات الكبرى إلى الفـــتوحات التركية في القرن الحادي عشر" لمؤلفه لويس هلفن (Louis Halphen) الـــذي أرجع تخريب بلاد المغرب المزدهرة حسب رأيه إلى العرب الهلاليين[2]. اقام

[1] ابن خلدون، المقدمة، بيروت، مؤسسة جمال للنشر، (ب ت)، ص 125ـــ126.

[2] Louis Halphen, Les Barbères. des grandes invasions aux conquêtes turques du XI[e] siècle, rééd. Paris, Librairie Félik Alcan , 1930, p. 374. كـــتب هـــذا المؤلف بالخصوص :

« Geste imprudent, que le calife du Caire, faute de pouvoir agir, venge ragement en lâchant sur les provinces de l'ouest en 1052, les bandes sauvages et assoiffées de butin d'une tribu arabe du Nadjd, les Hilal, cantonnés depuis la fin du dixième siècle en Haute Egypte, du côté d'Assouan, et qui vont en quelques années réduire à néant les richesses de l'Afrique du Nord ».

العرب الهلالية بتخريب البنية الاقتصادية و الاجتماعية لبلاد المغرب أخذ حيزا هاما في الدراسات التاريخية الاستعمارية كما نلمحه على الخصوص في كتابات المؤرخ الفرنســـي شارل أندري جوليان (Charles-André Julien) في كتابه العام الموسوم بـــــ " تاريخ إفريقيا الشمالية: تونس، الجزائر، المغرب منذ الفتح العربي حتى سنة 1830". بالـــرغم من النزعة المعادية للاستعمار[1] التي أبداها هذا الكاتب فانه ما لـــبث أن ســـقط في فلـــك الإسطوغرافيا الفرنسية من خلال اتهام العرب الهلالية بتخريب مدينة القيروان و جعل هجرتهم كأهم حدث مأساوي جرى في العصور الوســـطى[2]. و هذا الموقف نجده في كتاب " الدين الإسلامي في بلاد البربر" لمؤلفه ألفـــرد بال (Alfred Bel)عندما يجعل من العرب الهلالية العامل الرئيسي لما آل إليه وضع المغرب و خصوصا فيما يخص تعريب القبائل البربرية[3].

في كـــتابه الموســـوم بـــــ " المغـــرب الأوسط في عهد الزيريين" تطرق الأركيولوجي الفرنسي ليسيان غولفا (Lucien Golvin) إلى ما اعتبره نهاية حضارة المغـــرب الوسيط و حمل القبائل الهلالية مسؤولية الانحطاط الذي حدث من خلال

---

[1] هـــذه النزعـــة المعاديـــة للإستعمار نلمسها خصوصا في المقالات التي نشرها المؤلف في مختلف الجرائد التي اشتهرت بمواقف يسارية معارضة للسياسة الإستعمارية مثل L'*Echo d'Oran*, *La Lutte sociale* et le *Progrès civique*. هذه المقالات أعيد نشرها في كتاب للمؤلف بعنوان *Une pensée anti-coloniale, positions 1914-1979*, Paris, Sindbad, 1979.

[2] Charles-André Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord : Tunisie –Algérie- Maroc depuis la conquête arabe à 1830*, Paris, Payot, 1931, rééd. revue par R. Le Tourneau, 1975, p. 373.

[3] Alfred Bel, *La religion musulmane en Berbérie esquisse d'histoire et de sociologie religieuse*., Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1938, vol. I, p. 209.

قطـــع الطرق و تخريب المزارع و إحداث أثر سلبي على جميع الأنشطة[1]. كذلك تطـــرق روجـــي لوتورنو (Roger Le Tourneau) إلى العرب الهلالية في محاضرة ألقاها بجامعة برنستون (Princeton University) حيث اتهمهم بطرد السكان البربر مـــن أراضيهم و تحويل النشاط الاقتصادي من زراعي إلى رعوي[2]. في نفس الفترة تقـــريبا تمت الإشارة إلى تخريب المغرب من طرف الهلاليين و هذا في الكتاب العام الذي ألفه غاستون وايت (Gaston Wiet) الموسوم بـــ " عظمة الإسلام من محمد إلى فرانســـوا"، حيث كتب أن العرب خربوا كل المحاصيل الزراعية و تحطيم البنية الاقتصـــادية و السياسية لبلاد المغرب، بل إنه تجرأ على شتم العرق العربي و اعتبره مصدر قطاع الطرق و النهابين[3].

الـــنقاش الغربي حول أثر الهجرة الهلالية في تاريخ بلاد المغرب ظل حبيس المدرســـة التاريخـــية الفرنســـية في الفترة السابقة للاستقلال الوطني اللهم إلا تلك الإشارات العابرة في بعض المؤلفات الأنجلو سكسونية و الألمانية مثل ما كتبه نوفيل بـــربور (Nevill Barbour) حول مسؤولية قبائل بني سليم و بني هلال في تحطيم القـــيروان و تخريب بلاد المغرب إضافة إلى تعريب المنطقة[4]، و ما كتبه المستشرق الألماني كارل بروكلمان (Carl Brocklman) في كتابه " تاريخ الشعوب الإسلامية

---

[1] Lucien Golvin, *Le Maghreb central à l'époque des Zirides, recherches d'archéologie et d'histoire*, Paris, Arts et métiers graphiques, 1957, p. 307-314.

[2] Roger Le Tourneau, « North Africa in Historical Perspective » dans *Current Problems in North Africa*, Princeton University Conference, 1959, p. 4.

[3] Gaston Wiet, *Grandeur de l'Islam, de Mahomet à François*, Paris, La Table Ronde, 1961, p. 198-203.

[4] Nevill Barbour, *A Survey of North West Africa (The Maghreb)*, Oxford, Oxford University Press, 1959, p. 18.

" حيث تبنى طرح الاستشراق الفرنسي حول هذه المسألة[1]، و أخيرا تلك الأسطر التي كتبها برطولد سبيلار (Bertold Spuler) في كتابه " عصر الخلفاء " و الذي تحاشى فيه أي حكم قاس عن آثار الهجرة الهلالية[2].

إذا كانت الدراسات الاستشراقية الألمانية و الأنجلوسكسونية قد تميزت بنوع من "الاعتدال" في حكمها على القبائل الهلالية فان المدرسة الفرنسية عرفت بعداوتها للعرب و وصف أعمالهم بالكارثة الكبرى التي ضربت بلاد المغرب و قد مثل هذا الاتجاه المؤرخ الهادي روجي ادريس.

الهادي روجي ادريس و" كارثة" الهجرة الهلالية

مع نهاية الربع الأول من القرن العشرين ظهرت سلسلة من الدراسات الاستعمارية حاولت مسح اسم " المغرب" و تعويضه بـ"بلاد البربر" (La Berbérie) و قد دشن هذا الاتجاه جورج مارسي و تلته عدة دراسات تبنت نفس الاسم كما رأينا مع ألفرد بال مثلا، لكن الشيء الملفت للانتباه هو ذلك التركيز الذي حظيت به تونس و الشرق الجزائري تحت اسم بلاد البربر الشرقي (La Berbérie orientale) ، و لهذا أنجزت عدة أطروحات جامعية حول هذه المنطقة لدراسة التطور التاريخي للبنية الاجتماعية للمجتمع المغربي. أول هذه الدراسات الجامعية كانت من إنجاز فوندرهيدان (Vonderheyden) بعنوان " بلاد البربر

---

[1] كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس و منير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط 10، 1984، ص 319ـ320.

[2] Bertold Spuler, *The Muslim World*, I – *The Age of the Caliphs*, traduit de l'allemand, F. R. C. Bagley, Leiden, E. J. Brill, 1960, p. 108.

الشرقي في عهد دولة بني الأغلب" و التي نشرت عام 1924. هذا المؤلف تطرق إلى ظـروف ارتـباط افريقية الأغلبية بالمشرق الإسلامي من خلال دراسة النظم والمؤسسـات، بمعـنى آخـر مقاربة وصفية للمؤسسات دون الخوض في المسائل المطروحة كقضية الازدهار أو الانحطاط المغربي مقارنة مع الفترة الرومانية[1]. في سنة 1940 أصـدر المؤرخ و عالم الإسلاميات الفرنسي روبار برونشفيك (Robert Brunschvig) دراسـة كلاسـيكية هامة و التي تعد من أهم المرجعيات الأساسية لدراسـة العصر الحفصي و هذا بعنوان " بلاد البربر الشرقي في عهد الحفصيين". برونشـفيك استغل العديد من المصادر التاريخية و الجغرافية و الفقهية، بل وظف لأول مـرة النوازل في كتابة التاريخ و من هنا جاءت أهمية دراسته و التي ترجمت مؤخـرا إلى العـربية. المؤلف استعمل لأول مرة مصطلح " الكارثة الهلالية" (La catastrophe hilalienne) للتعبير عن رأيه فيما يخص دور الهجرة الهلالية في تاريخ المغـرب[2]. برونشـفيك أراد معرفة حقيقة ما جرى في السنوات الأولى لوصول الهلالـيين لأنه درسهم في فترة متأخرة نسبيا عن الحادثة و لهذا كلف أحد تلامذته بإنجـاز هـذا البحث في إطار رسالة دكتوراه دولة. فاختار لهذا الغرض الهادي روجي ادريس (Hady Roger Idris) التونسي من أبيه (فقده في صغره) و الفرنسي مـن أمه و المتقن جيدا للغة العربية. لدراسة هذا الموضوع بطريقة شاملة قام هذا

[1] M. Vonderheyden, *La Berbérie orientale sous la dynastie des Benoû l-Arlab (800-909)*, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1924, 344 p.

[2] Robert Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines à la fin du XV^e siècle*, 1940, rééd. Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien-Maisonneuve, 1982, vol. I, p. 357.

الأخـــير بتحضـــير رسالة دكتوراه دولة و ناقشها بجامعة السوربون عام 1958 بعـــنوان " بـــلاد البربـــر الشـــرقي في عهـــد الزيـــريين" و التي نشرت مرتين (1959،1962) و ترجمت مؤخرا إلى العربية.ادريس نجح في إعداد أهم مرجعية تاريخـــية حـــول افريقية في العهد الزيري من خلال تتبع نفس المقاربة الكلاسيكية لأســـتاذه برونشفيك. و يعد بحق من أهم المؤرخين الأوائل الذين وظفوا المصادر الفقهـــية في كـــتابة التاريخ و على الخصوص نوازل البرزلي و معيار الونشريسي. ادريـــس اشـــتهر بتأكيده و تعميمه لفكرة " الكارثة الهلالية" من خلال الجزم بأن وصول الهلاليين للمغرب يعد ضربة قاضية لحضارة المغرب لأن هذه القبائل البدوية خربت العمران و أتلفت المحاصيل الزراعية و اغتصبت الأراضي و طردت السكان البربـــر الأصليين. باختصار فانه يرى بأن الهجرة الهلالية مثلت نهاية العصر الذهبي لـــبلاد المغرب[1]. هذه الاتهامات الخطيرة للهلاليين أيقظت الأوساط العلمية حول ضرورة البحث عن حقيقة ما حدث.

التيار الماركسي الفرنسي في مواجهة أصحاب النظرية الكارثية

يعـــد جون بونسي (Jean Poncet) من أهم المؤلفين الذين اعترضوا على فكـــرة وصـــف الهجرة الهلالية بالكارثة التي حلت ببلاد المغرب. بونسي لم يكن مـــؤرخا بـــل دخل التاريخ من زاوية جغرافية من خلال بحثه عن أنماط الإنتاج في افـــريقية. فقد كتب مقالين عامي 1954 و 1961 حول أنماط العيش في تونس

[1] Hady Roger Idris, *La Berbérie orientale sous les Zirides X-XII^e siècles*, Paris, Adrien-Maisonneuve, 1962, vol. 2, p. 625.

اعتمادا على فكرة مستخرجة من " كتاب العمران " لابن خلدون[1] و تطرق فيهما إلى إشـــكالية الازدهـــار و الانحطاط في شمال إفريقيا و هو رد صريح على النظرة الاســـتعمارية لتفســـير تاريخ المغرب الوسيط[2]. بعد طبع و رواج الدراسة الهامة للـــهادي روجـــي ادريس حول بلاد افريقية في العهد الزيري و الذي تمت فيه " محاكمة" الهلاليين، قام بونسي بالرد على المؤرخ الفرنسي في مقالين تحت عنوان " أســـطورة الكارثة الهلالية " (1967)[3] و " مجددا حول الهلاليين: توضيح الهادي روجي ادريس" (1968)[4]. لقد أعاب بونسي على ادريس تحميل العرب الهلاليين مســـؤولية تخريب المغرب و اتهمه بالاعتماد على كتابات متأخرة عن زمن الحادثة وعلـــى مؤرخين كتبوا لصالح الدول البرجوازية سواء في بجاية أو المهدية. الهادي روجـــي ادريس دافع عن آرائه في مقالين صدرا عام 1968 تحت عنوان " حقيقة الكارثـــة الهلالـــية"[5] و " الغزوة الهلالية و نتائجها"[6]، مؤكدا آرائه المعادية للعرب

[1] Jean Poncet. « L'évolution des genres de vie en Tunisie : autour d'une phrase d'Ibn Khaldun » dans *Cahiers de Tunisie*, VI (1954), p. 315-323.

[2] Jean Poncet, « Aux sources de l'histoire nord-africaine : prospérité et décadence ifrîqiyennes » dans les *Cahiers de Tunisie*, t. IX, n° 33-35, (1961) p. 221-243.

[3] Jean Poncet, « Le mythe de la (catastrophe) hilalienne » dans *Annales, Economie, Société et Civilisations*, 22 (1967), p. 1099-1120.

[4] Jean Poncet, « Encore à propos des Hilaliens, la mise au point de R. Idris » dans *Annales Economie, Société et Civilisations*, 23 (1968), p. 660-662.

[5] Hady Roger Idris, « De la réalité de la catastrophe hilalienne » dans *Annales, Economie, Société et Civilisations*, 23 (1968), p. 390-396.

[6] Hady Roger Idris, « L'invasion hilalienne et ses conséquences » dans *Cahiers de civilisation médiévale*, 3, (1968) p. 353-371.

الهلالـــية و اهم خصمه بونسي بعدم معرفته للمصادر التي تتحدث عن " هجمية" القبائل الهلالية.

الـــنقاش الحـــاد بـــين ادريس و بونسي توسع مع نهاية الستينات و بداية الســـبعينات بنشر عدة دراسات حول آثار الهجرة الهلالية و قامت النخبة المغاربية المفرنسة بلعب دور مهم في هذا النقاش.

النخبة المغاربية المفرنسة في مواجهة الطرح الإستعماري

تبايـــنت الـــردود بشأن مسؤولية العرب الهلالية في سقوط أو اضمحلال حضـــارة المغرب الإسلامي. فبعد النقاش الحاد بين المؤرخين الفرنسيين جاء دور النخـــبة المغاربـــية المثقفة، حيث أصدر المؤرخ المغربي عبد الله العروي كتابا باللغة الفرنســـية تحت عنوان " تاريخ المغرب محاولة في التركيب " و فيه قام بمناقشة عدة آراء حـــول ما كتب بخصوص تاريخ المغرب و دعى إلى تحرير التاريخ من النزعة الاســـتعمارية (Décoloniser l'histoire) و هـــنا أتوقـــف قليلا حول ما كتب بخصوص مسألة الهجرة الهلالية.

عبد الله العروي تحدث عن ما أسماه بالتفسير الكلاسيكي للهجرة الهلالية والمتمثل في التحدث عن مختلف المعارك التي أجرتها هذه القبائل ضد المعز بن باديس (حـــيدران) أو الناصر بن علناس الحمادي (سبيبة)، ثم انتقل للحديث عن تفسير آخـــر كتـــبه المعاصرين للهجرة الهلالية مثل ابن شرف القيرواني و نقله عنهم ابن عـــذاري المراكشـــي و قام ابن خلدون بتنظيمه. هذه النظرة أخذها عنهم جورج مارسي و غوتييه و الهادي روجي ادريس. العروي يرى بأن هذه النظرة تجعل من الحملـــة الهلالية نقطة قطيعة في تاريخ المغرب و هذا اعتمادا على بعض آثار الهجرة

مـــن خلال بعض النصوص. فعلى المستوى البشري، فان قبائل زناتة التي سكنت بالمناطق الرعوية للمغرب الأوسط طردت نحو الغرب، و على المستوى الاقتصادي تحول الاقتصاد من زراعي إلى رعوي، و نتيجة أخرى و هو تخريب المدن و تراجع العمـــران في الكثير من المدن كالقيروان و قلعة بني حماد و سجلماسة. هذا الوضع الـــذي أدى إلى تفكك الدولة و سيادة الفوضى نتج عنه احتلال النورمان (Les Normands) لـــبعض المدن الساحلية لبلاد افريقية. اعتبر العروي هذه النظرة غير محايدة لأنها كتبت بأقلام كتاب البرجوازية المتغلغلة في وسط رجال البلاط المعادي للقـــبائل الهلالية. الفتاوى التي تتهم القبائل الهلالية و نظام الحكم أصدرت كذلك من طرف برجوازية تجارية. في مقابل هذه النظرة التقليدية اقترح نظرة أخرى تدافع عـــن الهلاليين من خلال التركيز على الظروف التي عرفتها افريقية قبل مجيء هذه القـــبائل إليها و على الخصوص المشاكل الدينية المترتبة على التشيع. بمقاربة متأثرة بالأفكار الماركسية تمكن العروي من إعطاء نظرة نقدية و سطحية في نفس الوقت عـــن المصادر التي كتبت حول الهجرة الهلالية و وضعها في نسق عام تميز بانحطاط العـــالم الإســـلامي في مشـــرقه و مغربه (سقوط الخلافتين العباسية و الفاطمية، الهجمـــات الصليبية، الانهزام و التراجع في الأندلس...) و بتطور اقتصادي للغرب الأوروبي الـــذي حـــاول السيطرة على حوض البحر المتوسط. لقد انتقد كذلك الفكرة التي نشرها غوتييه حول العلاقة بين البربري المستقر و العربي الهلالي الراحل و اعتـــبرها من المغالطات الاستعمارية[1]. العروي يرى بأن المغرب عرف الحروب

[1] Abdallah Laroui, *L'histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, 1970, rééd. Paris, Maspero, 1982, p. 140-146.

التي وقعت بين القبائل المؤيدة للفاطميين و المجموعات الموالية لبلاط قرطبة الأموي و التي أدت إلى انحطاط اقتصادي و إلى أزمة ديمغرافية لأن سكان افريقية و المغرب الأوسـط لجئوا إلى المغرب الأقصى و هناك حاولوا إقامة إمارات منافسة لأحفاد ادريس بن عبد الله[1].

النخـبة العربية المفرنسة واصلت إبداء رأيها كما هو حال الكاتب سمير أمـين السـذي سقط في فلك التفسير الاستعماري لظاهرة الهجرة الهلالية فهو يتهم القـبائل الهلالـية بتدمير الأرياف البربرية التي كانت مزدهرة، و بتخريب أنظمة السـقي، و بطرد السكان الأصليين من قراهم إلى الجبال[2]. في نفس الفترة تطرق عبد المجيد دويب في الجزء الذي كتبه ضمن " تاريخ تونس في العصر الوسيط " إلى المسألة الهلالية و اكتفى بالتطرق إلى بعض مخلفات الهجرة الهلالية كنهب القيروان و انتشـار الفوضـى بإفريقية[3]. فهو إذن يتناول الموضوع بنظرة تقليدية بعيدا عن الطرح الاستعماري.

النخـبة المغاربية واصلت خوضها للنقاش حول آثار الهجرة الهلالية، ففي سـنة 1974 تطرق المؤرخ التونسي محمد الطالبي إلى الهلاليين في مقال له تحت عـنوان " الفقه و الاقتصاد في افريقية في القرن التاسع الميلادي " و التي انتقد فيه أصحاب التفسير الكارثي للتاريخ و اعتبر أن القبائل الهلالية اختتمت عملية تحطيم لاقتصاد كان مريضا قبل وصولهم بمدة إلى المنطقة. ففي نظر الطالبي، الحملة الهلالية

[1] *Ibid*, p. 129-130.

[2] Samir Amin, *Le Maghreb moderne*, Paris, Les Editions de Minuit, 1970, p. 15-16.

[3] Abdelmajid Douib, « L'Ifriqiya à l'époque ziride » dans *Histoire de la Tunisie, Le Moyen Age*, Tunis, Société tunisienne de diffusion, (s.d.), p. 307-314.

ليســـت المسؤولة الوحيدة عن هذا الانحطاط و إنما هناك عوامل أخرى ساهمت في ذلك مثل نقص اليد العاملة في المجال الفلاحي بسبب نقص العبيد بعد أن سيطرت القـــوى المسيحية على الملاحة المتوسطية. في الأخير يرى هذا المؤرخ التونسي بأن الهجـــرة الهلالية حولت الاقتصاد المغربي من زراعي و حضري إلى رعوي[1]، و في هذه النقطة يشترك مع النظرة الاستعمارية الفرنسية. محمد الطالبي راجع أطروحاته في مداخلـــة لـــه و هـــذا بالملتقى الدولي الثلاثين للعلوم الإنسانية بآسيا و إفريقيا الشـــمالية و الذي انعقد بمدينة مكسيكو من 3 إلى 8 أوت 1976، حيث حدد القرنين العاشر و الحادي عشر الميلاديين كزمن التحولات الكبرى في بلاد المغرب والـــذي نتج عنه تراجع ملحوظ على المستوى العمراني و البشري بسبب ثورات البربر و على الخصوص حركة أبي يزيد النكاري[2].

المؤرخ الجزائري عطاء الله دهينة الذي بحث في تاريخ المغرب الإسلامي في عهـــد دويـــلات ما بعد الموحدين أعطى رأيه في الموضوع و استعمل لأول مرة مصـــطلح " تأخـــر " (Le recul) للتعبير عن ما آل إليه الاقتصاد المغربي في القرن الرابع عشر الميلادي، و قال بأنه من الصعب تحميل عامل معين مسؤولية ما آل إليه الوضـــع الفلاحي نتيجة تراكم عدة أسباب مناخية منها و سياسية مرتبطة أساسا

[1] Mohamed Talbi, « Droit et économie en Ifriqiya au III/IX[e] siècle » rééd. dans *Etudes d'histoire ifriqienne et de civilisation musulmane*, Tunis, Publications de l'Université de Tunis, 1982, p. 185-208.

[2] Mohamed Talbi, « Effondrement démographique au Maghreb du XI au XV[e] siècle » dans *Cahiers de Tunisie*, XXV, (1977) p. 51-60.

بسـيادة الفوضى و انحلال الدول ببلاد المغرب[1]. عطاء الله دهينة تحرر من الطرح الاستعماري المحمل للعرب الهلالية مسؤولية إسقاط حضارة المغرب.

لقـد توسعت دائرة النقاش حول دور القبائل الهلالية لتتطرق إلى الجذور الأولى لمسيرهم لمحاولة فهم ما حدث انطلاقا من بدايته، و لهذا نجد التونسي راضي دغفـوس يقـوم بالبحث عن أصول القبائل الهلالية و السليمية و هذا من خلال مقالين. الأول نشر عام 1975 تحت عنوان " أصل بني هلال و بني سليم " و فيه تعرض إلى بعض ما قيل بشأن هذه القبائل قبل أن يتطرق إلى حياتهم في بلاد العرب و دخـولهم في الإسلام و أعمالهم حتى رحيل الفاطميين إلى مصر. صاحب المقال ركـز على عمليات نهب المسافرين و الحجاج من طرف هذه القبائل[2]. أما المقال الثاني فقد صدر سنة 1977 تحت عنوان " مظاهر الحالة الاقتصادية في مصر عند منتصف القرن الخامس الهجري/منتصف القرن الحادي عشر الميلادي: مساهمة في دراسـة ظروف هجرة القبائل العربية (بني هلال و بني سليم) إلى افريقية " حيث أوضـح بأن فترة مغادرة القبائل الهلالية لصعيد مصر تزامنت مع الأزمة الاقتصادية التي عرفتها الخلافة الفاطمية سنة 444هـ/1052م. إذن العامل السياسي وحده غـير كاف لتفسير الهجرة الهلالية بل يضاف إلى ذلك الظروف الاقتصادية المزرية التي عرفتها مصر الفاطمية و التي أسفر عنها رحيل هذه القبائل بحثا عن الرزق[3].

---

[1] Atallah Dhina, *Les Etats de l'Occident musulman aux XIII^e, XIV^e et XV^e siècles, institutions gouvernementales et administratives*, Alger, ENAL, 1984, p. 344.

[2] Radhi Daghfous, « De l'origine des Banû Hilâl et des Banû Sulaym » dans *Cahiers de Tunisie*, XXVI, (1975) p. 41-68.

[3] Radhi Daghfous, « Aspects de la situation économique de l'Egypte au milieu du V/milieu du XI ^e siècle : contribution à l'étude des conditions de l'immigration des

الكتابات العربية بين الوصف و الدفاع

الكـتابات باللغـة العربية حول حضارة المغرب الوسيط تعددت و لكن القلـيل منها من اهتم بتحليل الظواهر و بيان مراحل تطورها، بمعنى آخر اهتمت بالجـال الوصفي على حساب محاولة الفهم بأسلوب علمي يتماشى مع التطورات الـتي عـرفها علم التاريخ الحديث. سوف لا أشير إلى جميعها بطبيعة الحال و إنما سأقتصـر على بعض المنعطفات الكبرى للكتابات التي تطرقت إلى مسألة انحطاط المغرب الوسيط.

فقـي كتابه الموسوم بـ" العلاقات بين بني زيري و الفاطميين و أثرها في تـاريخ ليبـيا " تطرق مراجع عقيلة الغناي إلى الهجرة الهلالية و حملها مسؤولية انحطاط بلاد المغرب:

> " و قد ترتب على دخول جحافل العرب هذه إلى افريقية نـتائج خطـيرة سياسية و اجتماعية و اقتصادية و بشرية وثقافـية... هـذه القـبائل حـرفتها السلب و النهب، وسـلاحها السيف و الرمح... أصيبت البلاد بداء فاتك ومرض عاصف، دمار للعمران كبرقة و أجدابية و سرت واطرابلس و شتت أهلها و سلبت أملاكهم[1]."

---

tribus arabes (Hilāl et Sulaym) en Ifrîqiya » dans *Cahiers de Tunisie*, XXV, (1977) p. 23-50.

[1] مـراجع عقـيلة الغناي، العلاقات بين بني زيري و الفاطميين و أثرها في تاريخ ليبيا، طرابلس: مطابع وزارة الإعلام، 1968، ص 82.

عـــندما نقـــرأ هذه الأسطر يتبادر إلى الذهن بأن صاحبها هو غوتييه أو جـــورج مارسي، لكن لا الأول و لا الأخير له صلة بهذه الأسطر. إن كاتب هذه الأحكام القاسية ضد عرب بني هلال هو كاتب عربي تأثر بالكتابات الاستعمارية الكلاسيكية التي نسجت معالم تفسير كارثي للهجرة الهلالية. مراجع عقيلة الغناي لـــيس الوحيد الذي تأثر بمدرسة الاستشراق الفرنسي بل نجد آخرون و خير مثال علـــى ذلك أحمد بن عامر في كتابه الموجه للجمهور العريض تحت عنوان " الدولة الصـــنهاجية صفحة من العصر الذهبي للحضارة التونسية "، و هو الكتاب الذي جعل فيه صاحبه من الهجرة الهلالية الحدث المعبر عن انتهاء حضارة زاهرة[1] . نفس النظرة نجدها في كتاب " تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول " الصـــادر سنة 1974 لمحمد الهادي العامري أين تحدث هذا الكاتب عن العرب الذين عاثوا في الأرض فسادا و عن لجوء بقايا البربر إلى الجبال كعادتهم[2].

مـــع محمود إسماعيل في كتابه " الخوارج في المغرب الإسلامي" (1970) تمـــت إثارة عامل آخر من عوامل اضمحلال حضارة المغرب بماركسية مدافعة عن القبائل البربرية الفقيرة ضد " البرجوازية" العربية حاول المؤلف أن يعطي لنا مجموعة من العوامل المساهمة في تخريب الاقتصاد المغربي إلى جانب ثورات البربر الخوارج، لكن المؤلف ما لبث أن سقط في فلك الطرح الاستعماري و المتمثل في حتمية أفول

---

[1] أحمد بن عامر، الدولة الصنهاجية صفحة من العصر الذهبي للحضارة التونسية، تونس، الدار التونسية للنشر، 1972، ص 35ـ38.

[2] محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الإزدهار و الذبول، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1974، ص 138ـ139.

حضـــارة المغرب مقارنة مع الفترة السابقة للإسلام[1]، بمعنى آخر قامت الدراسات الاستشراقية بإعطاء نظرة أسطورية لما سمي بمخزن روما من الحبوب (Le grenier de Rome) و الذي انتهى بسبب "غزو" العرب للمنطقة. نظرة محمود إسماعيل لا تختلف كثيرا عن تفسير مؤرخ مصري آخر و هو حسن إبراهيم حسن في كتابه " تـــاريخ الدولة الفاطمية في المغرب و مصر و سورية و بلاد العرب " عندما حمل ثورة أبي يزيد المحتسب مسؤولية تخريب عمران بلاد المغرب و إلى عرب بني هلال عملية القضاء على الحضارة القيروانية المزدهرة[2].

مع نهاية السبعينات و بداية الثمانينات ظهرت مجموعة من الدراسات تخص الســـلالة الحمادية على أساس أنها معاصرة للهجرة الهلالية. أولى هذه الدراسات عـــبارة عن رسالة ماجستير نوقشت بجامعة عين شمس عام 1975 و نشرت عام 1980 تحـــت عنوان " دولة بني حماد صفحة مشرقة في تاريخ الجزائر " للمصري عبد الحليم عويس، و هي الدراسة التي ركزت على دراسة النتائج السياسية للهجرة الهلالـــية و أثـــرها على الحكم الحمادي. لقد نجى الحماديون من السقوط بعد أن توغلت القبائل الهلالية في بلاد المغرب حسب رأي هذا المؤلف[3]. في الحقيقة تعتبر دراســـة عويس وصفية و تقليدية مدافعة عن العروبة الممزوجة بالإسلام في قالب

---

[1] محمـــود اسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، بيروت، دار العودة، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1976، ص 202ـ203.

[2] حســـن ابـــراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب و مصر و سورية و بلاد العرب، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1964، ص 92، 254. تجدر الإشارة بأن هذه الدراسة تعتبر قديمة، فهي في الأصل رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية نوقشت بجامعة لندن عام 1928.

[3] عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة مشرقة من تاريخ الجزائر، بيروت، دار الشروق، 1980.

إيديولوجي بعيدا عن روح النقد العلمي للمصادر التاريخية. الدراسة الثانية جمعت بـــين الـــتاريخ العام و الأركيولوجيا و هي من إنجاز رشيد بورويبة تحت عنوان " الدولـــة الحماديـــة تاريخها و حضارتها " و هي الدراسة التي تجاهل فيها صاحبها الـــنقاش الدائر حول أثر الهجرة الهلالية و اكتفى بذكر أهم الأحداث التي واكبت دخول قبائل بني هلال إلى المغرب الأوسط[1]. و أخيرا نجد كتاب " دولة بني حماد ملوك القلعة و بجاية" لإسماعيل العربي حيث حاول فيه الدفاع عن العرب من خلال التفريق بين كلمة عرب و كلمة أعراب ليصب غضبه على الأعراب بمعنى القبائل الهلالـــية وفق النظرة الاستعمارية، فقد نسب إليهم تخريب العمران و دخولهم في حروب ضد البربر المستقرين ممثلين بصنهاجة ثم بزناتة[2].

مع بداية الثمانينات ازداد الاهتمام العربي بالمسألة الهلالية من خلال صدور مجموعة من الدراسات. فقد خصص حسين مؤنس فصلا كاملا للهجرة الهلالية في كـــتابه " معـــالم تاريخ المغرب و الأندلس" معتبرا بأن القبائل الهلالية خربت بلاد المغـــرب لكنها ساهمت بعد ذلك في بناء حضارته و تعريب المنطقة و خلق توازن بـــين القـــبائل البربرية[3]. السيد عبد العزيز سالم ذهب أبعد من ذلك عندما ترجم حرفيا ما أتى به مارسي حول نتائج الهجرة الهلالية و المتمثلة أساسا في انحسار ملك

---

[1] رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، ص 54ـــ 55.

[2] اسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة و بجاية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1980، ص 153 ـــ160.

[3] حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب و الأندلس، الفجالة، دار مطابع المستقبل، 1980، ص 155ـــ156.

الســـلالات الصنهاجية، و تخريب عمران و حضارة بلاد المغرب، و تعريب البلاد وانقســـام بـــلاد المغرب إلى دول و طوائف على نحو ما حدث في الأندلس عقب ســـقوط الخلافـــة الأمـــوية[1]. تأثر بعض الدراسات العربية إلى حد كبير بتيارات الاستشراق الفرنسي جعل بعض المؤرخين تحت لواء إيديولوجيات مختلفة يحاولون إعطـــاء تفسير جديد أو البحث عن أضواء جديدة حول الهجرة الهلالية كما فعل كل صباح ابراهيم الشيخلي في مقالها " الهلاليون في المغرب، ضوء جديد حول أثر هجـــرتهم " (1982)[2] و ممـــدوح حســـين في مقاله " العرب الهلالية في افريقية ودورهم في الحروب الصليبية " (1981). هذا الأخير ركز على الدور العسكري لهـــذه القـــبائل و اعتبرها المنقذ الرئيسي لبلاد المغرب من الخطر الصليبي[3]. إعادة الاعتبار أو إعطاء دور أكثر أهمية للقبائل الهلالية بدا بارزا في رسالة الدكتوراه التي ناقشـــها و نشرها مصطفى أبو ضيف أحمد عمر تحت عنوان " القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين و المرينيين" الذي أقر بالدور السياسي و الاقتصادي الهام الذي لعبته القبائل العربية في تاريخ المغرب[4].

---

[1] الســـيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج 3: العصر الإسلامي، دراسة تاريخية و عمرانية و أثرية، بيروت، دار النهضة العربية، 1981، ص 671ـــ673.

[2] صـــباح ابـــراهيم الشـــيخلي، " الهلاليون في المغرب، ضوء جديد حول أثر هجرتهم " المجلة التونسية للعلوم الإجتماعية، ع 70ـــ71، (1982) ص 7ـــ26.

[3] ممدوح حسين، " العرب الهلالية في افريقية و دورهم في الحروب الصليبية " الكراسات التونسية، XXIX ، (1981)، ص 73ـــ90.

[4] مصـــطفى أبـــو ضـــيف أحمد عمر، القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين و المرينيين، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 332ـــ338.

إبـــراز الدور الإيجابي و أحيانا تفخيمه و إهمال الجوانب السلبية للهجرة الهلالـــية ارتـــبط ببروز التيارات القومية العربية و على الخصوص في زمن الرئيس المصـــري جمـــال عبد الناصر التي رأت في الدفاع عن العرق العربي هدفا أساسيا للمؤرخ، و لهذا نجد أن أغلب هذه الدراسات ينقصها الجانب العلمي و المنهجي في الكتابة التاريخية الحديثة. كما أن بعض الدول العربية عينت مؤرخين رسميين لإعادة كتابة ماضيها كما فعل الملك الحسن الثاني عندما نصب عبد الوهاب بن منصور، صاحب قاموس القبائل المغربية، مؤرخا رسميا للبلاط الملكي.

بعد تراجع النقاش في الغرب حول أثر الهجرات في تحطيم الحضارات، قل الاهـــتمام كذلك بالهجرة الهلالية ببلاد المغرب على أساس أن النقاش أصبح عقيما لعـــدم توفـــر مصادر تاريخية جديدة تخدم الموضوع. فيما يخص الكتابات العربية، الـــتاريخ الســـلالاتي قتل إلى حد كبير المقاربات الهامة التي تحدد الفترات الكبرى للـــتحولات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية طالما أن الباحث يحكم علـــى موضـــوع دراســـته بالازدهار أو الركود أو حتى الانحطاط إن تعلق الأمر بالحركات الاحتجاجية المسلحة. ففي كتابه " دولة الأدارسة في المغرب ـــ العصر الذهبي 172ـــ788/223ـــ835 " حمل سعدون عباس نصر الله البربر الخوارج مسؤولية تخريب النسيج العمراني لبلاد المغرب، في حين نسب إلى الأدارسة عملية إحـــداث ازدهار ملموس بعد تأسيس دولتهم[1]. هذه النظرة الجزئية و العاطفية مع التشيع الإدريسي نجد ما يماثلها و هو التحيز للمرابطين في كتاب " أضواء جديدة

[1] سعدون عباس نصر الله، دولة الأدارسة في المغرب ـــ العصر الذهبي 172ـــ788/223ـــ835، بيروت، دار النهضة العربية، 1987، ص 137ـــ138.

علـــى المرابطين " لعصمت عبد اللطيف دندش: فهو يعطي الشرعية لأمراء الحركة المـــرابطية علـــى حساب الحماديين و الهلاليين متهما إياهم بإلحاق أضرار جسيمة بـــبلاد المغـــرب[1]. في كـــتابه الموسوم " الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهـــم " يصـــور لـــنا عز الدين عمر موسى نموذج آخر من السقوط في فلك الكـــتابة التاريخية المصنوعة في البلاط الموحدي، و هذا عندما يعتمد على نص ابن صـــاحب الصـــلاة، أحد الموظفين المتعصبين لحركة ابن تومرت، و الذي يريد أن يقنعـــنا بأن العرب الهلاليين عاثوا فسادا في افريقية إلى غاية توجيه طاقاتهم لخدمة الأمة من طرف عبد المؤمن بن علي و أحفاده[2].

بقـــاء التردد حول دور الهجرة الهلالية في تخريب حضارة المغرب الوسيط بـــدا جليا في بعض الدراسات العربية التي أنجزت خلال السنوات العشر الأواخر، وخـــير مثال على ذلك ما كتبه الباحث التونسي صالح بعيزق في رسالة دكتوراه قدمها أمام جامعة تونس الأولى عام 1995 تحت عنوان " بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية و اجتماعية " و التي عبر من خلالها عن موقفه من مجيء الهلاليين إلى بلاد المغرب، موقف غير بعيد عن النظرة الاستعمارية السالفة الذكر، فهو يعتبر هزيمة الحماديين في معركة سبيبة انتصار للبداوة على حياة الاستقرار و هو ما أدى إلى تغيير البنية الاجتماعية لبلاد المغرب، كما أدى هذا المجيء إلى فرار السكان من

---

[1] عصـــمت عبد المجيد دندش، أضواء جديدة على المرابطين، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991، ص 73 ـ74.

[2] عـــز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم و نظمهم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991، ص 51ـ52.

المـــناطق الداخلـــية و استقرارهم بالمناطق الساحلية، بمعنى آخر طرد هؤلاء البدو للســـكان البربر الأصليين من ممتلكاتهم، و هذا لا يختلف كثيرا عن أفكار مارسي. بعيـــزق يرى بأن تحول الاقتصاد المغربي من زراعي إلى رعوي هو ناتج عن ازدياد طلب التجار الأوروبيين لتلبية حاجيات الصناعة الغربية من الجلود و الصوف، فهو يتقاســـم نفـــس النظرة المعبر عنها من طرف المؤرخين الاستعماريين حول تغلب الرعـــي علـــى الزراعة في بلاد المغرب الوسيط لكن يختلف معهم حول السبب في ذلك[1].

الطرح الاستعماري الفرنسي حول مسألة انحطاط حضارة المغرب الوسيط و إلقـــاء مســـؤولية ذلك على العرب الهلاليين أثار إذن عدة ردود فعل من طرف النخبة المغاربية و العربية المفرنسة منها و المعربة، لكن السؤال المطروح هو ما مدى تقبل المدارس الاستشراقية الأخرى للنظرة الفرنسية الاستعمارية؟

مايكل برات رائد الإنصاف الاستشراقي اتجاه العرب الهلالية

تقليديا تاريخ بلاد المغرب الوسيط كان حكرا على المدرسة الفرنسية وهذا لارتباط قسم كبير من الاستشراق الفرنسي بالاستعمار في الفترات السابقة. لكن بعـــد استقلال بلدان المغرب اهتم بعض المستشرقين الألمان و الإيطاليين و الأسبان والإنجليز بتاريخ المغرب الوسيط. سأشير فقط إلى دراستين الأولى بالإيطالية والثانية بالألمانية و في الأخير أركز على الاستشراق الإنجليزي الذي كان له دور أساسي في تجديد الدراسات الغربية الخاصة بالمغرب الوسيط.

---

[1] صـــالح بعيزق، بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية و اجتماعية، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، 1995، ج 1، ص 53، ج 2، ص 363.

في ســـنة 1973 أصدر دافيد أبولافيا (David Abulafia) مقال بعنوان " النشـــاط الـــتجاري الجنوي في افريقية النورمانية: مدينة طرابلس " حيث بين فيه نشاط الحركة التجارية بالمنطقة، و اهم فيه القبائل الهلالية بتخريب افريقية و انحاز بـــذلك إلى أصحاب الأطروحة الكارثية[1]. بعده بقليل أصدر المؤرخ الألماني مارتين فورســـتنار (Martin Forstner) دراسة هامة حول المغرب الأوسط حيث تعرض فـــيها إلى أســـباب و نـــتائج الهجرة الهلالية و اتحد في الأخير موقفا مغايرا للنظرة الكارثـــية[2]. المساهمات الإيطالية و الألمانية حول الموضوع لم تعرف النجاح الذي أنجـــزه الاستشـــراق الإنجليزي ممثلا في المؤرخ المعروف مايكل برات (Michael Brett) الاختصاصي في تاريخ افريقية في العهدين الفاطمي و الصنهاجي و صاحب العديد من المؤلفات الهامة كان آخرها *The Rise of the Fatimids, The World of the Mediterranean and the Middle East in the Fourth Century of the Hijra, Tenth Century C E* (2001)[3].

مايكل برات أنجز رسالة دكتوراه حول العرب الهلالية بالقيروان ثم و سع دائرة أبحاثه لتشمل ليبيا و بلاد الزاب، و قام بنشر مقالاته ابتداء من سنة 1979 بصدور مقال له تحت عنوان " ابن خلدون و تعريب إفريقيا الشمالية "[4] لتليه أربع

---

[1] David Abulafia. « L'Attività commerciale genovese nell'Africa normanna : la città di Tripoli » dans *Atti del Congresso Internazionale di Studi sulla Sicilia Normanna*, Palermo, 1973, p. 1-8, rééd. dans *Commerce and Conquest in the Mediterranean, 1100-1500*, Londres, Variorum Reprints, 1993, n° IX.

[2] Martin Forstner, *Das wegenetz des Zentralen Maghreb in islamischer*, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1979, p. 81-83.

[3] Leyde-Boston-Köln, Brill. 2001, 497 p.

[4] Michael Brett, « Ibn Khaldun and the Arabisation of North Africa » dans *The Maghreb Review*, IV-1, (1979) p. 9-16.

مقالات مهمة حول الهجرة الهلالية منها[1] " الكتابة التاريخية الفاطمية: دراسة حالة الجدال مع الزيريين " (1982) و " هجرة البدو" (1995). مايكل برات أوضح بأن الهجرة الهلالية لم تكن السبب الوحيد في تقهقر حضارة بلاد المغرب و اعتبر ما قيل بشأنها ما هو إلا أسطورة صنعتها الكتابات الأوروبية لخدمة الإدارة الاستعمارية الفرنسية، لسبب بسيط حسب رأيه و هي أن بلاد المغرب ظهرت بها علامات الوهن و السقوط مع بداية العهد الصنهاجي نتيجة الحروب المدمرة و التي أدت إلى إحداث أزمة ديمغرافية و اقتصادية و سياسية. كما انتقد بالخصوص غوتييه و مارسي حول حتمية الصدام بين البربري المستقر و العربي الراحل. و بهذا فان مايكل برات أصبح رائد التيار الاستشراقي المناهض لفكرة تحميل القبائل الهلالية مسؤولية القضاء على جميع جوانب الحياة في بلاد المغرب.

كتابات مايكل برات دعمت النزعة المناهضة للطرح الاستعماري، فقد ظهرت مجموعة من الدراسات في عدد من البلدان الغربية. ففي بداية الثمانينات كلفت المنظمة العالمية للثقافة و العلوم (Unesco) المؤرخ المغربي محمد الفاسي بالإشراف على كتابة الجزء الخاص بالحقبة الوسيطة من مشروع " التاريخ العام

[1] Cf. Michael Brett, « Arabs, Berbers and Holy Men in Southern Ifriqiya 650-750h/1250-1350 Ad» dans *Cahiers de Tunisie*, 29, (1981) p. 533-559 ; id, « The Flood of the Dam and the Sons of the New Moon » dans *Mélanges offerts à Mohamed Talbi à l'occasion de son 70e anniversaire*, Manouba, 1993, p. 55-67, rééd. dans *Ibn Khaldoun and the Medieval Maghreb*, Sydney-Ashgate, Variorum Reprints, 1999; id. « The Way of the Nomad » dans *Bulletin of the School of The Oriental and African Studies*, 58, (1995) p. 251-269, rééd. dans *Ibn Khaldoun*. Le cas ifriqien et tripolitain étudié par M. Brett dans « Ifriqiya as Market for Saharan Trade from the Tenth to the Twelfth Centry A. D » dans *Journal of African History*, X, 3 (1969), p. 347-364 a été revu par une étude de David Abulafia, *op. cit.*

لإفريقيا " و تولى المؤرخ التشيكي ايفان هربك (Ivan Hrbek) بإعداد مقال مطول حـــول الفاطميين أين تطرق إلى الهجرة الهلالية و أبدى رأيه في القضية على ضوء آخر الدراسات في هذا الموضوع. المقال صدر سنة 1990 و فيه نجد أن النظرة " الكارثية " قد دفنت على مستوى المنظمة العالمية. اليونيسكو تتبنى إذن أفكار التيار " المنصف " للدور التاريخي للقبائل الهلالية، بل إن المؤرخ التشيكي يفضل الحديث عن " تغلغل" بدل " غزوة" القبائل الهلالية لبلاد المغرب. الشيء الوحيد الذي أيد فيه المؤرخين الاستعماريين هو قضية الإقرار بدور العرب الهلالية في تحويل النشاط الفلاحي لبلاد المغرب من زراعي إلى رعوي[1]. النظرة المعبر عنها في " التاريخ العام لإفـــريقيا " لا تختـــلف كثيرا عن ما توصل إليه المؤلف الايطالي ميشال بروندينو (Michele Brondino) في كـــتابه " المغـــرب الكبير: الأسطورة و الواقع " حيث هاجم فيه بشدة الكتابات التاريخية الاستعمارية و أشاد بالجيل الشاب من المؤرخين المغاربة الذين عملوا على تحرير تاريخ بلادهم من شوائب الاستعمار، ليعطي نظرته في الموضـــوع و هو أن أزمة المغرب لم تبدأ مع وصول الهلاليين في منتصف القرن الحادي عشر و إنما الأزمة حدثت في القرن الرابع عشر الميلادي نتيجة الصراع بين الأسر الحاكمة لهذه المنطقة من جهة و الهجومات النصرانية من جهة أخرى[2].

[1] Ivan Hrbek, « L'avènement des Fatimides » dans *Histoire générale de l'Afrique*, Paris, Unesco/Nea, 1990, vol. III, p. 342-363.

[2] Michele Brondino, *Il Grande Maghreb : Mito e Realita*, traduit en français par Yvonne Fracassetti Brondino, *Le Grand Maghreb : mythe et réalités*, Tunis, Alif, 1990, p. 28-34.

في مقـــال لهـــا صدر سنة 1992 بـــ " حاوية الدراسات العربية" حول النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب الوسيط، تطرقت ماريا فيديازوف (Maria F. Vidiasov) إلى قضية الانحطاط الاقتصادي لبلاد المغرب في نهاية العصر الوسيط من خلال تعرضها بالنقد لبعض الدراسات التي صنعت نظرة سكونية للمجتمع المغربي مبنـــية على علاقات بين بعض المدن و على أرياف منغلقة على نفسها. فيديازوف اتهمـــت الحكام المسلمين بسوء التسيير و إهمالهم لدورهم اتجاه الرعية، و كذلك احـــتكارهم للتجارة الرابحة البحرية منها و الصحراوية. باعتمادها على عدد من كـــتب الجغـــرافية، تطرقت هذه المؤلفة إلى تنوع الإنتاج الفلاحي في بلاد المغرب الوسيط و الذي لا يختلف كثيرا عن الفترة القديمة بالرغم من الأزمات التي واكبت انـــتقال البنية الاقتصادية من المرحلة البيزنطية إلى الفترة الإسلامية. في الأخير رأت الباحـــثة بـــأن القبائل الهلالية لم تكن مسؤولة عن تخريب اقتصاد المغرب، و إنما تراكمت عدة عوامل أدت في النهاية إلى انحطاط عام لبلاد المغرب ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي[1].

مـــن جهته عاد المؤرخ البلجيكي جاك تيري (Jacques Thiry) إلى إثارة النقاش حول دور العرب الهلالية في انحطاط حضارة بلاد المغرب و هذا من خلال مقال صادر عام 1998 تحت عنوان " مصر و انحطاط إفريقيا الشمالية "، حيث انتقد فيه الكتابة التاريخية الأوروبية و الفرنسية منها على الخصوص لتحميلها القبائل العـــربية مسؤولية تخريب بلاد المغرب. تيري رفض فكرة الكارثة الهلالية و نصب

[1] Maria F. Vidiasov, « Le Maghreb médiéval : mercantilisme parasitaire ou société productrice » dans *Anaquel de .Estudios Arabes*, 3, (1992) p. 241-246.

نفسه في خانة المنصفين بقيادة بونسي و برات. و لتعليل نظرته، اقترح هذا المؤرخ البنجيكـــي عوامل أخرى لتفسير ظاهرة الانحطاط أولها العمليات البحرية البيزنطية ابـتداء مـــن منتصـــف القرن العاشر الميلادي و التي أدت إلى توقيف " القرصنة" الإسلامية و هذا ما أدى إلى النقص في عدد الرقيق البيض و بالتالي الأيدي العاملة في المـيدان الزراعـــي و الحرفي. العامل الثاني هو ثقل الضرائب الملقاة على عاتق السكان من طرف الفاطميين و من بعدهم البادسيين و هذا ما أدى بالفئة النشطة وخصوصا التجار بالهجرة إلى المشرق، و أخيرا دور مصر من خلال محاولة التوسع في بـــلاد المغـــرب و ما نتج عنها من تحالف قراقوش الغزي مع الميورقيين و بعض القـــبائل الهلالية ضد النظام الموحدي في المغرب الأوسط و افريقية و الذي أدى في الأخير إلى تخريب العمران. من خلال دراسة أوضاع منطقة طرابلس في نهاية القرن الـــثاني عشر خرج جاك تيري بنتيجة و هي أن انحطاط بلاد المغرب لا يمكن ربطه بأي نظام حياة أو أي عرق أو مجموعة اجتماعية و إنما الإنسان عبر عدة مراحل[1].

كمـــا رأينا فان أغلب الدراسات الاستشراقية خصوصا الإنجلوسكسونية مـــنها تحررت من النظرة الاستعمارية، فهل الكتابات الفرنسية المعاصرة تبعتها في ذلك؟

[1] Jacques Thiry, « L'Egypte et le déclin de l'Afrique du Nord XI-XII[e] siècle » dans *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamlouk Earas*, Leuven, Vitgeverij Peetens, 1998, p. 237-248.

ترددات الكتابات الفرنسية المعاصرة

باستثناء الهادي روجي ادريس المتوفى سنة 1978 لم تعرف المدرسة التاريخية الفرنسية المعاصرة متخصصين كبار في تاريخ المغرب الوسيط. الاستشراق تراجع باستقلال الدول المستعمرة من جهة و من جهة أخرى نتيجة الدور الذي لعبه كلود كهان (Claude Cahen) في توجيه أغلب الدراسات إلى الاعتناء بالمشرق الإسلامي. جمهور الاستشراق الفرنسي المعاصر عبر هو الآخر عن رأيه حول ما كتب بشأن تحميل القبائل الهلالية عملية تخريب بلاد المغرب، لكن في الغالب جل ما كتب لم يكن إلا ردود فعل أو مواقف معبر عنها اعتمادا على دراسات سابقة.

ففي سنة 1968 أصدر الجغرافي كزافيي دو بلانول (Xavier de Planhol) كتابا بعنوان " الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام " حيث تطرق فيه إلى أسباب تخريب المغرب و أرجعها إلى التغيرات المناخية و إلى القبائل الهلالية[1]. في نفس السنة أصدر أندري ميكال (André Miquel) كتابه الموسوم " الإسلام وحضارته " و عبر فيه عن موقفه بشأن الهجرة الهلالية و التي حملها مسؤولية تراجع نظام الدولة و سيادة حكم القبائل و كذلك الانهيار الاقتصادي لبلاد المغرب[2]. برؤية أوسع و صل أشهر المستشرقين المنضوين تحت لواء مدرسة الحوليات (Ecole des annales) و هو موريس لومبار (Maurice Lombard) إلى نتيجة مفادها بأن

---

[1] Xavier de Planhol. *Les fondements géographiques de l'histoire de l'islam*, Paris, Flammarion, 1968, p. 140-143.

[2] André Miquel, *L'Islam et sa civilisation VII-XX^e siècle*, Paris, Armand Colin, 1968, p. 197-198.

الغزوة النورمانية و الهجرة الهلالية قاما بفصل الغرب الإسلامي عن بلاد المشرق، وهذا في كتابه " المنسوجات في العالم الإسلامي من القرن السابع إلى القرن الثاني عشر "[1]. بعده بقليل و بمنهج مغاير تناول جاك بارك (Jacques Berque) إشكالية الهجـــرة الهلالية في مقال له تحت عنوان " من جديد حول بني هلال " و فيه انتقد الكـــتابات الاســـتعمارية التي اعتمدت على ابن خلدون في توجيه أصابع الاتهام للهلالـــيين بحكـــم أن هذا الأخير كتب بمدة طويلة بعد الحادثة من جهة و تنظيره البعـــيد عن الواقع التاريخي من جهة أخرى. جاك بارك اقترح دراسة نتائج الهجرة الهلالية حسب حالة كل منطقة مع تحليل دقيق للتحولات السياسية و الاجتماعية وهذا للخروج بنتيجة شاملة و علمية[2].

بعد غياب دام عدة سنوات خرج الهادي روجي ادريس عن صمته وكتب مقـــالا مطـــولا لم يكتب له القدر أن يراه مطبوعا كونه نشر بعد فترة قصيرة من وفاتـــه. الدراســـة نشـــرت بعنوان " المغرب من المرابطين إلى السيطرة التركية "(1979) و فـــيها دافـــع المؤلف عن نظرته السابقة من خلال تأكيده بأن الهجرة الهلالـــية زرعـــت الخـــراب و الفوضى في بلاد المغرب[3]. و تعتبر ما نشره غبريال كمـــبس (Gabriel Camps) مـــن آخـــر مـــا كتب من طرف الجيل القديم من

[1] Maurice Lombard, *Les textiles dans le monde musulman du VII^e au XII^e siècle*. Paris-La Haye-New York, Mouton et EHESS, 1978, p. 77.

[2] Jacques Berque, « De nouveau sur les Banî Hilâl » dans *Studia Islamica*, XXXVI, (1972) p. 99-111.

[3] Hady Roger Idris, « Le Maghreb des Almoravides à la domination turque » dans *Regierung und ver waltung des vorderen orients in Islamisher Zeit*, teil 1, Leyde, E. J. Brill, 1979, p. 1-16.

المستشـــرقين الفرنسيين، و هذا في مقال له نشر سنة1983 تحت عنوان " كيف تحـــولت بـــلاد البربر إلى المغرب العربي " و الذي ذكرنا فيه بالطرح الاستعماري عـــندما اتهـــم القـــبائل الهلالـــية بتخريب الأرياف و تدمير النسيج الاجتماعي والاقتصادي لبلاد المغرب[1]. نجد تقريبا نفس الرؤية عند مؤلف فرنسي آخر و هو بول لويس كمبيزا (Paul-Louis Cambuzat) في كتابه الذي نشر في الجزائر تحت عنوان "تطور مدن التل في افريقية من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر" والذي اعتبر فيه " الغزوة" الهلالية بأنها شكلت قطيعة في تاريخ مدن التل الإفريقي أكثر مما فعلـــه الفـــتح الإسلامي. نفس المؤلف أضاف بأن "الغزوة" الهلالية أوقفت بشكل عنيف حضارة مدن المغرب إلى غاية العهد الحفصي أين تشكلت من جديد[2].

بعـــد وفاة الكثير من رموز الجيل القديم في الاستشراق الفرنسي و تحول اهـــتمام الجـــيل الجديـــد إلى البحث عن ماض بلاد المشرق باعتبارها مهد الدين الإسلامي تراجع الاهتمام الفرنسي بظاهرة الهجرة الهلالية اللهم إلا تلك الإشارات الـــتي قام بها بعض الباحثين ضمن تعرضهم للعلاقات الاقتصادية بين المدن البحرية الغربية و موانئ المغرب. ففي مقاله " أمالفي و تونس في العصر الوسيط " الصادر ســـنة 1999 تطرق إيمانويلي ريفيرسو (Emanuele Riverso) إلى الهجرة الهلالية وحملـــها مســـؤولية انحطاط التجارة مع مدينة أمالفي (Amalfi) الإيطالية بعد أن

[1] Gabriel Camps, « Comment la Berbérie est devenue le Maghreb arabe » dans *Revue du Monde Musulman et de la Méditerannée*, 35 (1983-1), p. 7-24.

[2] Paul-Louis Cambuzat, *L'évolution des cités du Tell en Ifriqiya du VII^e au XI^e siècle*, Alger, Offices des publications universitaires, 1986, vol. I, p. 152-153.

أقدمت تلك القبائل على تخريب المزارع و الأرياف[1]. من جهته تطرق برنار بومار (Bernard Boumerc) إلى إشـــكالية انحطـــاط المغرب و هذا في كتابه " البندقية والإمارة الحفصية (1231ـــ1553) " حيث اعتبر القرن الخامس عشر بمثابة فترة ازدهار السلطنة الحفصية في حين مثل القرن السادس عشر مرحلة الانحطاط. و هي نظـــرة تقارب ما توصلت إليه بعض الدراسات من أن الانحطاط كان في السنوات الأخيرة للحفصيين[2].

هنـــري برســـك (Henri Bresc) ، المؤرخ الفرنسي المتخصص في تاريخ صـــقلية في العهـــد النورماني، نشر مقالا عن " مملكة النورمان بإفريقية و أسقفية المهديـــة " (1998) حـــيث توصل فيه إلى عدة نتائج من بينها أن الهجرة الهلالية قضـــت على أنشطة الأرياف و عزلت المدن الساحلية و أحيت التنظيمات القبلية وهـــذا مـــا أدى إلى انتشـــار الفوضى بالمنطقة[3]. دائما في إطار الدراسات حول العلاقـــات بـــين بلاد المغرب و الموانئ الغربية، أشير إلى رسالة دكتوراه لدمنيك فاليريـــون (Dominique Valérian) حول علاقة ميناء بجاية بموانئ البحر المتوسط والتي بين فيها بطلان النظرية الاستعمارية لتفسير انحطاط حضارة المغرب الوسيط حيث أكد أنه لم تحدث قطيعة في تاريخ المغرب بسبب الهجرة الهلالية و لا انحطاط

---

[1] Emanuele Riverso. « Amalfi et la Tunisie médiévale » dans *Cahiers de Tunisie*. 178, (1997) p. 11-28.

[2] Bernard Boumerc, *Venise et l'émirat hafside de Tunis (1231-1535)*. Paris. L'Harmattan, 1999, p. 45.

[3] Henri Bresc, « Le royaume normand d'Afrique et l'archevêché de Mahdiyya » dans *Le partage du monde : échange et colonisation dans la Méditerranée médiévale*. (s/d M. Balard et A. Ducellier, Paris, Publication de la Sorbonne, 1998, p. 347.

في القـــرن الحـــادي عشر و إنما أزمة في القرن الرابع عشر و التي انتهت في القرن الخامس عشر[1].

بالـــرغم مـــن نشر الكثير من الدراسات التي راجعت النظرة الاستعمارية حـــول دور العرب الهلالية في انحطاط حضارة المغرب الوسيط فان أغلب جمهور الاستشراق الفرنسي من غير المتخصصين يعتمد أساسا على الهادي روجي ادريس و بالتالي النظرية الكارثية في التعريف بتاريخ المغرب سواء للقراء من عامة الناس أو لطلـــبة مـــا قبل التدرج. فمن النوع الأول أشير إلى كتاب " الإسلام و الحضارة الإسلامية " لجورج بيروني (Georges Peyronnet) الصادر سنة 1992، و الذي نســـب للعـــرب الهلالية تدمير الاقتصاد المغربي و تعطيل الطرقات و القضاء على الدول القائمة و إحداث عدم توازن اجتماعي[2]، و كتاب " الإسلام و البحر" الذي صـــدر سنة 2000 لمؤلفه كسافيي دو بلانول (Xavier de Planhol) و الذي لم يغـــير مـــواقفه التي عبر عنها في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه عندما اتهم العرب الهلالية بتخريب المدن الداخلية و طرد البربر نحو الساحل[3].

[1] Dominique Valérian, *Bougie, port maghrébin à la fin du Moyen Age (1067-1510)*, Thèse de doctorat nouveau régime, Université de Paris I, 2000, p. 209, 230, 375, 633.

[2] Georges Peyronnet, *L'Islam et la civilisation islamique VII-XIII^e siècle*, Paris, Armond Colin, 1992.

[3] Xavier de Planhol, *L'Islam et la mer, la mosquée et le matelot VII^e – XX^e siècle*, Paris, Perrin, 2000, p. 158-160.

الكتابات من النوع الثاني نجدها متعددة من بينها كتاب " العالم المتوسطي مـــن القـــرن السابع إلى القرن الثالث عشر " لبياتريس لوروا (Béatrice Leroy)[1] وخصوصا كتاب " دول الإسلام من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر " لآلان ديسوليي (Alain Ducellier) و فرانسواز ميشو (Françoise Micheau)[2]، و هذه الكتب ليست بأبحاث و إنما مطبوعات موجهة للطلبة لتحضير مسابقات الكفاءة، لكن ما نلاحظه هو تبنيها للطرح الاستعماري كما نلاحظه في هذه الجملة المقتطفة من الكتاب الأخير:

" الغزوة المعروفة بالهلالية ظهرت بأنها كارثية مع التخريب الكامل للقيروان و أغلب المدن الأخرى و على الخصوص تدمير الأرياف بالكامل[3]."

الكـــتابات الاستعمارية حول تاريخ المغرب الوسيط ما زالت اذن تشكل مـــرجعية مهمة للفرنسيين المعاصرين، و لا نكاد نجد أثر ملموس لتيار الاستشراق المنصـــف اتجاه الهجرة الهلالية اللهم إلا تلك الكتابات المحدودة للمؤلفين المحسوبين علـــى تـــيار اليسار مثل ايف لاكوست (Yves Lacoste) في مقاله " من التاريخ القـــديم إلى الاستعمار: تاريخ مضطرب " الصادر سنة 1991 حيث كتب قائلا حول أسطورة الغزوة الهلالية:

---

[1] Béatrice Leroy, *Le monde musulman du VII^e au XIII^e siècle*, Paris, Ophrys, 2000, p. 87.

[2] Alain Ducellier et Françoise Micheau, *Les pays d'Islam, VII^e – XV^e siècle*, Paris, Hachette, 2000, p. 95.

[3] *Ibid*, p. 95.

" يرى عدد من المؤرخين الأوروبيين الذين عاشوا في الفترة الاســتعمارية بــأن القرن الحادي عشر شكل في تاريخ المغــرب مــرحلة حاسمــة، و هي مرحلة اجتياح الرحل العــرب، ظاهــرة تقارن بغزو جنكيز خان أو تيمرلنك لآسيا...هذه الأطروحة ليس لها أسس تاريخية صلبة، لكنها مكــنت من القول بأن الاستعمار الفرنسي كان بالنسبة للبربــر المســتقرين وسيلة لاستعادة السهول و معارضة العرب و الرحل المخربين[1]."

الخاتمة: نحو رؤية شاملة لقضية الانحطاط

مــنذ أزيد من قرن و نصف ظهرت إذن مجموعة من الدراسات لدراسة ظاهــرة انحطــاط حضارة بلاد المغرب و التي نسبت في أغلب الأحيان إلى القبائل الهلالــية. الاختلاف في وجهات النظر راجع من دون شك إلى عدة عوامل و هي الغايــة مــن كــتابة التاريخ و الخلفية الفكرية للمؤلف، و تطور مفهوم التاريخ ومناهجه و تعدد تياراته، و تنوع المصادر التاريخية و طريقة استعمالها و أخيرا نظرة المؤلف إلى موضوعية المصادر التاريخية.

فــيما يخص الخلفية، لم يعد يخف على أحد بأن تاريخ العالم نظر إليه من زاويــة أوروبية، و هي النظرة المتميزة بالمركزية و المستعلية على الثقافات المعاصرة لهــا. و ما العصور الوسطى إلا وعكة صحية لحضارة إنسانية واحدة غربية بطبيعة

[1] Yves Lacoste, « De l'Antiquité à la colonisation, une histoire mouvementée » dans *L'Etat du Maghreb*, Paris, La Découverte, 1991, p. 42.

الحال نشأت مع السلت و استمرت مع اليونان و الرومان و عادت من جديد في ثوب النهضة ثم التنوير ثم الثورة الصناعية. النظرة الاستعمارية الفرنسية حاولت جر البربر إلى فلك هذه الحضارة من خلال اتهام العرب بفصلهم عن الحضارة و جرهم إلى ظلام و بداوة الجزيرة العربية. و جاءت أولى الكتابات حول تاريخ المغرب في هـــذا الاتجـــاه، بمعنى كتابة التاريخ لخدمة المشروع الثقافي الاستعماري الذي أراد صناعة تاريخ وفق منظوره. في مقابل هذا كان رد فعل القومية العربية عشوائيا من خـــلال الـــدفاع الأعمى عن منجزات العرق العربي بمحاسنه و مساوئه و بالتالي مناقضـــة الأطروحة الاستعمارية من أساسها. و الآن جاء دور أجهزة الإعلام أين الكثير من الباحثين لا يولون اهتمام لنتائجهم العلمية بقدر إرضاء الجمهور لكسب مكانة عالية لديهم على حد تعبير الكاتب الفرنسي فرنسيس بال (Francis Balle). و من هنا نفهم إصرار كاتب مثل كزافيي دو بلانول على إرضاء القارئ و المستمع الفرنسي بحكاياته عن الهلاليين و دورهم في إحداث قطيعة في تاريخ المغرب.

مـــنذ الكتابات الأولى حول الهجرة الهلالية مر علم التاريخ بعدة مراحل، كـــل مختـــلفة عن سابقتها في المقاربة و المصادر. فالكتابات الفرنسية الأولى حول تـــاريخ المغـــرب تأثـــرت إلى حد كبير بأقطاب التيار الوضعي من أمثال ميشلي (Michelet) في كتابه " تاريخ فرنسا " و كذلك جل الباحثين المنضوين تحت لواء " المجلـــة التاريخـــية " (La Revue historique)، هـــذا التيار قدم نظرة " حدثية " للـــتاريخ بالاعـــتماد علـــى المصادر التقليدية خصوصا بمعنى كتب التاريخ الحولي (annales et chroniques)، و هذا ما أدى بأوائل المؤرخين الفرنسيين إلى الاعتماد على كتب ابن الأثير و ابن خلدون و نقل ما فيهم لصنع في الأخير أسطورة بعيدا

عن حقيقة ما جرى في بلاد المغرب. مع سيطرة مدرسة الحوليات و بروز الماركسية المهتمة و المدافعة في نفس الوقت عن "عامة" المجتمعات ظهرت إلى الوجود مجموعة من الدراسات تطعن في مصداقية ما تحمله المصادر الأدبية من معلومات، و من هنا أثير التساؤل حول من و لمن كتب التاريخ، بمعنى آخر هل يمكن الاعتماد على كتابة تاريخيـــة مـــن صنع " البرجوازية" و الحاشية الحاكمة في كتابة تاريخ " الضعفاء"؟ بطبـــيعة الحال جملة من التساؤلات أدت إلى الوقوع في جدال بين أصحاب النظرة التقليدية للتاريخ و أصحاب المفهوم الجديد في الدراسات التاريخية.

بعد التأثير الكبير الذي لعبته البنيوية (Le structuralisme) و أخيرا العلوم الاجتماعـــية كالأنثـــروبولوجيا (Anthropologie) هناك إمكانية الدراسة الشاملة لإشكالية إحداث الهجرة الهلالية لأزمة أو انحطاط عام لحضارة المغرب الوسيط وفق نظرة شاملة و متفتحة بعيدا عن الخلفيات و الأحكام المسبقة[1].

[1] أنظر مساهمتنا حول دور الهجرة الهلالية من خلال دراسة العهد الحمادي:

Ailaoua Amara, « Retour à la problématique du déclin économique du monde musulman médiéval : le cas du Maghreb hammadide (XI-XII[e] siècles) » dans *The Maghreb Review*, 28-1, (2003), p. 2-26.